الإتجاه البنيوي الوصفي
في الدرس اللغوي العربي

م.د. صلاح فرحان شتيوي سالم العنزي

وزارة التربية - المديرية العامة للتربية - الأنبار - العراق

The Structural

Descriptive Trend in Arabic Linguistic Studies

D. Salah Farhan Shtiewi

Kadoomy53@gmail.com

077155089582

مجلة العلوم الإسلامية
المجلد 4 | العدد 42
www.isscj.edu.iq

Journal of Islamic Sciences
Vol.4 | Issue 42
ISSN: 2225-9732

March 2026

الملخص

شهدت الدراسات النحوية العربية منذ القرن الرابع الهجري طغيانًا واضحًا للمنهج المعياري والفلسفي، مما أدى إلى ابتعادها عن واقع اللغة كما تُستعمل فعليًا في المجتمع. وفي هذا السياق، يسلّط هذا البحث الضوء على أهمية المنهج الوصفي في دراسة النحو العربي، بوصفه منهجًا علميًا يركّز على وصف الظواهر اللغوية بدقة بعيدًا عن الأحكام المسبقة. ويسعى البحث إلى إبراز دعوات رواد اللسانيات العربية لتبني هذا المنهج، مع توضيح الفروق بين المنهج الوصفي والمنهج المعياري، والدعوة إلى إصلاح الدرس النحوي بما يتماشى مع متطلبات العصر، ويخدم احتياجات المتعلم والباحث في آنٍ واحد.

الكلمات المفتاحية: المنهج الوصفي، المعيارية، رواد المنهج الوصفي.

Summary:

The grammatical studies of Arabic since the fourth century AH have been marked by a clear dominance of the prescriptive and philosophical approach, which has led them to drift away from the actual linguistic reality as it is used in society. In this context, the present study sheds light on the importance of the descriptive approach in the study of Arabic grammar, as a scientific methodology that focuses on accurately describing linguistic phenomena, independent of any prior judgments.

The study seeks to highlight the calls made by pioneers of Arabic linguistics to adopt this approach, while clarifying the differences between the descriptive and prescriptive approaches, and calling for a reform of grammatical studies in line with the demands of the modern age, in a way that serves the needs of both learners and researchers alike.

Keywords: Descriptive approach, prescriptivism, pioneers of the descriptive approach.

مقدمة

شهد الدرس اللغوي العربي عبر تاريخه الطويل تحولات منهجية عميقة، كان من أبرزها انتقاله من الطابع المعياري القائم على التقعيد والتقنين إلى آفاق أوسع من التحليل العلمي الموضوعي الذي تمثّله المناهج اللسانية الحديثة، وفي مقدمتها المنهج الوصفي البنيوي. وقد أسهم هذا التحول في إعادة النظر في طبيعة اللغة بوصفها ظاهرة إنسانية اجتماعية قابلة للوصف والتحليل بعيدًا عن الأحكام المسبقة والقيود الفلسفية والمنطقية التي طبعت جانبًا كبيرًا من التراث النحوي.

وفي هذا السياق، يبرز الاتجاه البنيوي الوصفي بوصفه أحد أهم المناهج التي أعادت تشكيل الرؤية إلى اللغة العربية، إذ دعا إلى دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، والوقوف على أنظمتها الداخلية عبر الملاحظة والاستقراء، مع التركيز على الاستعمال اللغوي الواقعي. وقد تأثر هذا الاتجاه بالمدارس اللسانية الغربية الحديثة، ولاسيما المدرسة السوسيرية وما تفرع عنها من اتجاهات، مما أتاح للباحثين العرب إعادة قراءة التراث اللغوي في ضوء معطيات علمية جديدة.

أهمية الموضوع

تتجلى أهمية هذا البحث في كونه يعالج قضية منهجية مركزية في الدراسات اللغوية العربية، تتمثل في إبراز دور المنهج الوصفي البنيوي في تطوير الدرس اللغوي، والكشف عن قدرته على تجاوز الإشكالات التي أفرزها المنهج المعياري التقليدي. كما تكمن أهميته في تسليط الضوء على جهود رواد اللسانيات العربية الذين سعوا إلى نقل هذا المنهج وتطبيقه على اللغة العربية، مما أسهم في تحديث آليات التحليل اللغوي، وربطها بالواقع الاستعمالي للغة.

إضافة إلى ذلك، فإن هذا الموضوع يسهم في بناء وعي علمي لدى الباحثين والدارسين بأهمية التمييز بين المناهج اللغوية المختلفة، وأثر ذلك في نتائج البحث، فضلًا عن كونه يمثّل مدخلًا لفهم تطور الفكر اللغوي العربي المعاصر.

أسباب اختيار الموضوع

جاء اختيار هذا الموضوع استجابةً لجملة من الدوافع العلمية، من أبرزها:

· ملاحظة هيمنة النزعة المعيارية على كثير من الدراسات النحوية، وما ترتب عليها من ابتعاد

عن واقع اللغة الحي.

· الحاجة إلى إعادة قراءة الدرس اللغوي العربي في ضوء المناهج اللسانية الحديثة، وبخاصة المنهج الوصفي البنيوي.

· الرغبة في إبراز جهود الرواد العرب الذين أسهموا في نقل هذا الاتجاه وتوطينه في البيئة العربية.

· أهمية الموضوع في ربط التراث اللغوي العربي بالمعاصرة، وإعادة تقييمه وفق أسس علمية حديثة.

· قلة الدراسات التي تتناول الاتجاه الوصفي البنيوي تناولًا تحليليًا شاملاً يجمع بين التأصيل والتطبيق.

أهداف البحث

يسعى هذا البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، من أهمها:

· التعريف بالمنهج الوصفي البنيوي وبيان أسسه النظرية ومنطلقاته الفكرية.

· توضيح الفروق الجوهرية بين المنهج الوصفي والمنهج المعياري في الدرس اللغوي.

· تتبع نشأة الاتجاه الوصفي في الدراسات اللغوية العربية الحديثة، وبيان العوامل التي أسهمت في ظهوره.

· تحليل جهود أبرز رواد هذا الاتجاه في تطبيق المنهج الوصفي على اللغة العربية.

· الكشف عن أثر هذا المنهج في تطوير الدراسات اللغوية العربية، وإمكانية الإفادة منه في تجديد النحو العربي.

· الإسهام في تعزيز الاتجاه العلمي الموضوعي في دراسة اللغة بعيدًا عن الأحكام المعيارية المسبقة.

إشكالية البحث

تنطلق إشكالية البحث من ملاحظة وجود توتر منهجي واضح في الدرس اللغوي العربي بين اتجاهين متقابلين: اتجاه معياري تقعيدي يهيمن على التراث النحوي، واتجاه وصفي حديث يسعى إلى دراسة اللغة كما هي في الاستعمال. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها رواد اللسانيات العربية في تبني المنهج الوصفي البنيوي، فإنّ مدى نجاح هذا الاتجاه في إعادة تشكيل الدرس اللغوي العربي ما يزال محل تساؤل.

وعليه، تتمحور الإشكالية الرئيسة حول السؤال الآتي:

إلى أي مدى أسهم الاتجاه البنيوي الوصفي في إعادة بناء الدرس اللغوي العربي على أسس علمية موضوعية، وما حدود فاعليته في تجاوز الإشكالات المنهجية التي كرّسها الاتجاه المعياري؟

ميلاد الاتجاه الوصفي في الدرس العربي:

لقد زاد من الاهتمام بقضايا الإصلاح والتيسير اطلاع اللغويين العرب الرواد على طرائق التأليف عند الغربيين، إذ عرفت الثقافة العربية أوّل ملامح البنيوية الوصفية خاصة والتحديث اللغوي عامة، على يد جيل رواد مدرسة لندن الذين تلقوا النظريات اللسانية من الأستاذ فيرث زعيم المدرسة اللندنية ورائد النظرية السياقية(١).

في عام (١٩٤٧م) صدر كتاب (الأصوات العربية) لإبراهيم أنيس، والذي عدّه محمود السعران «أوّل مؤلف باللغة العربية يعرض الموضوع من وجهة نظر العلم الحديث»(٢)، ومن ثمّ ساد هذا الاتجاه وترسّخ في الثقافة العربية بفضل الجهود التي تلت إبراهيم أنيس، التي عرفت أبرز تجلياتها في جهود طلابه، وجهود الرواد العائدين من المدرسة نفسها التي ارتادها الدكتور، من أمثال: محمود السعران، وإبراهيم أنيس، وعبد الرحمن أيوب، وتمام حسان، وكمال بشر(٣).

المنهج الوصفي:

المنهج عند تمام حسان هو مجموعة «الأصول التي تتبع لدراسة أي جهاز من الأجهزة اللغوية»(٤)، هو الطريق الذي يسير عليه الباحثون في علاج المسائل والتي يصلون بفضلها إلى ما يرمون إليه من أغراض(٥)، والمنهج في كثير من الأحيان يُحدد «هوية العلم المعرفية؛ إذ تتميز العلوم بمناهجها مثلما تتميز بمواضيعها»(٦).

(١) ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أنّ هناك محاولة في هذا الصدد سبقت جيل رواد المدرسة اللندنية يمثلها الدكتور علي عبد الواحد وافي بمؤلفيه هما: (علم اللغة)، و(فقه اللغة) اللذان طبعا عام (١٩٤١م)، وعلى الرغم من أنّه لم يفرق بين المنهج التاريخي المقارن والمنهج الوصفي، إلا أنّه تضمن بعض قواعد المنهج الوصفي، واعتمد المستوى الصوتي والدلالي في تقسيم مستويات البحث اللغوي. ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية، مصطفى غلفان: ٩٠، والعربية وعلم اللغة البنيوي، حلمي خليل: ١٤٢، واللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، حافظ إسماعيلي علوي: ٤٣.

(٢) علم اللغة العام، محمود السعران: ٢٧.

(٣) ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، حافظ إسماعيلي علوي: ٤٤، والعربية وعلم اللغة البنيوي: ١٦٧.

(٤) اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان: ١٥.

(٥) ينظر: علم اللغة، علي عبد الواحد وافي: ٣٣.

(٦) اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، حافظ إسماعيلي علوي: ١٤٩.

والمنهج الوصفي هو المنهج الذي يقوم «بوصف أية لغة من اللغات عند شعب من الشعوب، أو لهجة من اللهجات، في وقت معين، أي أنّه يبحث اللغة بحثًا عرضيًا لا طوليًا، ويصف ما فيها من ظواهر لغوية مختلفة، ويسجل الواقع اللغوي، تسجيلًا أمينًا»(١)، فالمنهج الوصفي يصف الحقائق ويناقشها دون فلسفة، أو محاكمة لها أو إقحام المنطق في تفسير وتأويل الظواهر اللغوية، فليس من مهام الباحث أن يقتضب ما هو مفصل، أو يبسّط ما هو معقد(٢).

وعلى الواصفين هنا أن يحددوا المستوى اللغوي المقصود بالدراسة لظاهرة لغوية محددة صوتيًا أو صرفيًا أو تركيبيًا أو دلاليًا، «ولا يدخلون أنوفهم فيما يلاحظون بنظرة ذاتية تسمه بالصواب أو الخطأ أو الجودة وعدم الجودة. وتنحصر وظيفتهم في وصف ما يلاحظون وتسجيل قواعده المستخلصة من الأمثلة المتشابهة»(٣)؛ وذلك لأنّ عدم تحديد زمن الدراسة أو مكانها أو المستوى اللغوي المدروس، كل ذلك يؤدي إلى الخلط ويصل بالباحث إلى نتائج مضللة؛ فهذا التحديد من دواعي الدقة التي تتطلبها الدراسة العلمية(٤).

إذًا فالمنهج الوصفي يسجل الواقع اللغوي تسجيلًا أمينًا؛ بهدف الكشف عن حقائق النظام اللغوي بمستوياته المختلفة. وتمثل الدراسة الوصفية للغة خطًا أفقيًا تظهر فيه العلاقات بين العناصر اللغوية متميزة عن حقائق النظام اللغوي بمستوياته المختلفة.

لقد حققت اللسانيات الوصفية التي قدمها سوسير في القرن العشرين، نهضة كبيرة أدت إلى كثير من التطورات المهمة في علم اللغة المعاصر، ولم يبق هذا العلم على صورته التي قدمها سوسير، بل ظل يتوسع ويتفرع إلى اتجاهات ومدارس تختلف في الإجراءات والمصطلحات وطرائق التحليل، لكنّها جميعًا تعمل تحت إطار واحد يسمى النظرية البنائية. وقد تميزت كل نظرية من هذه النظريات بمبادئ عامة للوصف نوجزها بالآتي(٥):

(١) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبد التواب: ١٨١، علم اللغة العربية، الدكتور محمود فهمي حجازي: ٣٧.

(٢) ينظر: علم اللغة بين التراث والمعاصرة، عاطف مدكور: ٦٦.

(٣) دراسات في علم اللغة، كمال بشر ٢٥٤.

(٤) ينظر: علم اللغة العام، محمود السعران: ٢٤١ - ٢٤٢.

(٥) ينظر: تمام حسان رائدًا لغويًا، عبد الرحمن حسن عارف: ٢٤٣، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبد التواب: ١٨٣.

١. وصف باعتبار اللغة وقائع اجتماعية يمثله سوسير.
٢. وصف باعتبار اللغة حقيقة ثقافية يمثله سابير.
٣. وصف باعتبار اللغة سلوك آلي يمثله بلومفيلد.
٤. وصف باعتبار الوظيفة اللغوية، تمثله مدرسة براغ.
٥. وصف باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية (سياق الحال أو المقام)، يمثله فيرث.

رواد المنهج الوصفي في الدرس اللغوي الحديث

لقد أعجب اللغويون العرب الرواد بالإنجازات التي حققها اللسانيون الوصفيون في مجال الدراسات اللغوية، «وما وصلوا إليه من نتائج علمية جليلة الشأن»[١]؛ فكان ذلك حافزًا لتطبيق هذا المنهج على الجملة العربية، واختلفت اتجاهاتهم في هذا التطبيق، بين مؤصّل للمبادئ والأفكار اللسانية الجديدة، وبين متحيّز ومدافع عن الفكر اللساني الحديث[٢]، وبين من أراد التوفيق والتوليف بين المذهبين. وسنحاول في الصفحات التالية أن نكشف النقاب عن تجارب ومحاولات الرواد في وصف اللغة العربية بحسب قدم المحاولة.

١. محاولة إبراهيم أنيس:

بدأت حركة التبشير بالمنهج الجديد (المنهج الوصفي) ومحاول تطبيقه على اللغة العربية في نهاية النصف الأوّل من القرن المنصرم، بعودة المبعوثين المصريين من الجامعات الأوروبية، إذ تعود أولى إرهاصات المنهج الوصفي في الدراسات اللغوية العربية الحديثة، إلى أعمال إبراهيم أنيس.

لقد شغل إبراهيم أنيس نفسه - منذ أول يوم عاد فيه من بعثته إلى أوروبا - بوضع «مؤلفات تتناول دراسة مستويات اللغة العربية الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وفق هذا المنهج الحديث في دراسة اللغة، الذي تلقاه من علماء اللغة في إنجلترا»[٣]، فقد قدّم بعد عودته عددًا من ا لمؤلفات منها:

· الأصوات العربية.
· من أسرار اللغة.

(١) من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس: ٥.
(٢) ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، حافظ إسماعيلي علوي: ٢٢٦.
(٣) العربية وعلم اللغة البنيوي: ١٤٧.

· في اللهجات العربية.
· دلالة الألفاظ.

من خلال هذه المؤلفات أراد الدكتور تعريف القارئ العربي بأساسيات البنيوية الوصفية الغربية، التي كان يراها «دراسة قد تبدو حديثة في بلادنا، ولكنها ازدهرت وتأصلت بين من يعنون بالبحث اللغوي في أوربا»(١)، وعمد الدكتور إلى تبني المنهج الوصفي وتطبيقه على مستويات اللغة العربية كافة.

وهو من أوائل الرواد الذين فرّقوا بوضوح بين الدراسة الوصفية والدراسة التاريخية في مؤلفه (الأصوات اللغوية)؛ الذي نسبه إلى فرع الدراسة الفونولوجية التي تخدم بنية الكلمات وتركيب الجمل في لغة محددة، أمّا الدرس الفوناتيكي في نظره فإنّه يدرس الأصوات البشرية شرحًا وتحليلًا، ويجري عليها التجارب دون النظر إلى ما تنتمي إليه من لغات(٢).

وتتجلى الوصفية بكل وضوح في كتابه (في اللهجات العربية)، فاللهجات «من أهم فروع هذا البحث وأوسعها نطاقًا»(٣)، فلقد عنيت الدراسات الغربية الحديثة عناية خاصة بدراسة اللهجات حتى أصبحت عنصرًا مهمًا في ميدان البحث اللساني اللغوي الحديث، ومن أحدث الاتجاهات في البحوث اللغوية، ويرى أنّ هذه الدراسة الوصفية التحليلية الجديدة من الممكن أن تحقق أغراضًا جليلة منها(٤):

١. تسجيل لهجاتنا التي تكون مرحلة تاريخية من حياتنا الاجتماعية.
٢. إشباع رغبة العلماء منا في الدراسات الأكاديمية البحتة للهجات الحديثة.
٣. جعلها نواة نستغلها في إعادة دراسة اللهجات العربية القديمة.

لذلك دعا إبراهيم أنيس إلى دراسة اللهجات العربية دراسة علمية صحيحة، والدراسة العلمية عنده «يجب ان تبدأ وصفية، نشرحها ونسجلها ونحلل أصواتها وكلماتها، دون التعرض في البدء إلى أي نوع من المقارنات، أو الحكم على أيّة صلة بلهجة قديمة»(٥)، ونراه غير مرة يشير إلى

(١) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ٧.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٧.
(٣) علم اللغة، علي عبد الواحد وافي: ٧.
(٤) ينظر: في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس: ١٢.
(٥) في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس: ١٢.

الفرق بين المنهج التاريخي والمنهج الوصفي، ففي بحث الحقيقة والمجاز يفرق بين النظرة التاريخية والنظرة المعاصرة، فالنظرة التاريخية تنظر إلى المجاز كعنصر من عناصر البلاغة أو الجمال الفني فحسب، واعتبرت كل عصور اللغة على أنّها عصر واحد، وتجاهلت العامل الاجتماعي أو الثقافي، في حين أنّ النظرة المعاصرة تنظر للمجاز على أنّه مظهر من مظاهر التطور الدلالي في كل لغة من اللغات(١).

ويفصّل الدكتور القول كثيرًا في الجدل الحاصل بين إثبات وإنكار وقوع الترادف والمشترك اللفظي في اللغة، ويرى أنّ الذين أثبتوا الترادف كانوا ينظرون إلى الثروة اللغوية نظرة تاريخية وهي التي عبّر عنها سوسير بمصطلح اللغة: الدراسة الحركية للغة diachronic. أمّا الذين رفضوا الترادف فقد كانوا ينظرون إلى الثروة اللفظية نظرة وصفية، وهي التي عبّر عنها سوسير بمصطلح الدراسة السكونية للغة synchronic(٢).

على غرار المنهج الوصفي حاول إبراهيم أنيس في أعماله أن يربط القديم بالحديث، ويفك رموز الغموض التي شابت مصطلحات وعبارات «العلماء الذين جاءوا بعد سيبويه»(٣)، الذين اقتصرت دراستهم على الدراسة التاريخية وكتفوا بترديد ما ورد عن الخليل وسيبويه من ألفاظ واعتزوا بها إلى حد القداسة، فمصطلحات القرن الثاني الهجري هي نفسها، عند ابن جني، وابن يعيش، وعند ابن الجزري (ت: ٨٣٣هـ) في القرن التاسع الهجري(٤)، ويستدل بكلام ابن جني الذي يردد كثيرًا «هكذا يقول سيبويه»(٥)، وابن يعيش الذي ردد العبارة ذاتها(٦)، وابن الجزري الذي يقول: «وهو ظاهر كلام سيبويه»(٧).

(١) ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس: ٩٧ - ٩٩.
(٢) ينظر: في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس: ١٥٥ و١٦٦، والعربية وعلم اللغة البنيوي، حلمي خليل: ١٥٤، وعلم اللغة العام، فردينان دي سوسير: ١٠٠.
(٣) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ١٠٢.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٠٢ - ١٠٣.
(٥) سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: ٣٩٢هـ): ٦٠/١، والأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ١٢١.
(٦) ينظر: شرح المفصل، ابن يعيش: ٥١٦/٥، والأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ١٢١.
(٧) النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت: ٨٣٣ هـ)، المحقق: علي محمد الضباع (ت: ١٣٨٠ هـ): ١٩٩/١، والأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ١٢١.

ومن خلال مطالعتنا لأغلب أعمال الدكتور إبراهيم أنيس، يجوز لنا القول: إنّ إبراهيم أنيس أراد تقديم النظرية اللغوية الغربية الحديثة للقارئ العربي، وتحرير الدرس اللغوي من قيود التبعية والتقليد، وتبني المنهج الوصفي في إعادة وصف اللغة العربية، وتركيز بحثه اللساني في مباحث الدلالة واللهجات والصوتيات. ولكن قد يحق لنا أن نأخذ عليه بأنّه لم يفصح عن هيكل التحليل البنيوي الذي تبناه، ولم يعلن الولاء لمدرسة لسانية معينة.

وعلى الرغم من أنّه من أوائل الرواد الذين تتلمذوا لفيرث، فلم يلتزم الولاء المطلق للمدرسة الفيرثية، وقلما كان يذكر مدرسة معينة أو لغوي معين، وكان منهجه في سواده الأعظم يتضمن ألفاظًا عامة من مثل: الدلالة لدى الكبار(١)، الترادف لدى المحدثين(٢)، وجاءت أغلب أعماله خليطًا لعدد من النظريات اللسانية الأوروبية والأمريكية، فلاحظناه فرّق بين الوصفية والتاريخية على مذهب سوسير، وفي موطن آخر نجده «يتخذ من فكرة الخصائص المميزة. . . وهي إحدى المبادئ والأفكار الرئيسة التي عولت عليها مدرسة براج في تحديد العناصر المكونة للبنية اللغوية»(٣)، معيارًا لتحديد مصطلح اللهجة(٤).

والذي يدقق في أعمال الدكتور كثيرًا يلاحظ تأثره بسابير وبلومفيلد رائدي الوصفية الأمريكية واضحًا. إذ يجد كتاب بلومفيلد عن اللغة هو العمدة في تحليله الدلالي ويضعه ضمن مراجعه الرئيسة، من ذلك نقل عنه تعريف الكلمة(٥).

ومهما يكن من أمر فإنّ محاولة إبراهيم أنيس يراها الدكتور مصطفى غلفان قد «شكّلت رافدًا أساسيًا في الحركة اللغوية العربية الحديثة مساهمة بنصيب وافر في التعريف باللسانيات الوصفية»(٦).

(١) ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس: ٧٨.
(٢) ينظر: في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس: ١٥٤.
(٣) العربية وعلم اللغة البنيوي: ١٥٤.
(٤) ينظر: في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس: ١٥، العربية وعلم اللغة البنيوي، حلمي خليل: ١٥٤.
(٥) ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس: ٣٣، والعربية وعلم اللغة البنيوي، حلمي خليل: ١٥٨.
(٦) اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، مصطفى غلفان: ٢٨١.

٢. محاولة محمود السعران:

سار محمود السعران على خطى استاذه إبراهيم أنيس، فشمّر عن سواعد الجد وأنجز أعمالًا في ميدان البحث اللساني المعاصر، عدّها كمال بشر «من أقوى دعائم هذا التكوين»(١)، ومن أهمها كتابه: (علم اللغة العام مقدمة للقارئ العربي)، والعنوان يفصح بأنّه مدخلًا ومنفذًا إلى الدرس اللساني الحديث.

حدد الدكتور الدوافع التي حدت به إلى تأليف هذا الكتاب في غرضين مهمين هما(٢):

١. تعريف القارئ العربي بالنشاط العلمي في أحدث صوره، وجذب انتباهه إلى هذا اللون من التفكير الإنساني.

٢. تبسيط وتسهيل مادة البحث اللساني تبسيطًا يجعل المادة تلقى بنفسها إلى ذهن القارئ دون تعقيد أو اضطراب، فيقول: «ولقد حاولت تبسيط حقائق هذا العلم ما وسعني التبسيط، مع حرصي على الدقة والسلامة، حتى يستقل القارئ المبتدئ بتحصيل ما فيه ومدارسته، وينتقل منه آمنا إلى مطالعة أصول هذا العلم»(٣).

وعلى غرار إبراهيم أنيس فرّق بكل وضوح بين الدراسة الوصفية والدراسة التاريخية للغة، كما هو الحال في الدراسات الأدبية التي قسمت تاريخ الأدب العربي إلى مراحل زمنية، وبيئات مكانية محددة(٤)، ولا يجد السعران من بئس في أن يسلك الدارسين أي المسلكين شاءوا، ولكنّه يحذر من الخلط بينهما(٥)، ويرى أنّ «من أخطر ما رسخ في عقولنا هو عدم التمييز بين الدراسة الوصفية والدراسة التاريخية للغة»(٦).

وأكد الدكتور أنّ النحو الوصفي هو أساس الدراسات النحوية التاريخية والمقارنة، وأنّ الدراسات عامة لا تأتي أكلها على وجهها العلمي الصحيح دون الدراسة الوصفية(٧). وغالبًا ما تنصب هذه الدراسة الوصفية للغات واللهجات الحية، «أما دراسة لغة ميتة في مرحلة من مراحلها. . . تختلف

(١) دراسات في علم اللغة، كمال بشر: ٩.
(٢) ينظر: علم اللغة العام، محمود السعران: ٥ - ٦، ودراسات في علم اللغة، كمال بشر: ٩.
(٣) علم اللغة العام، محمود السعران: ٦.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٢٤٢.
(٥) ينظر: دراسات في اللغة، كمال بشر: ١٩.
(٦) المصدر نفسه: ٣٩.
(٧) ينظر: المصدر نفسه: ٢٤١ - ٢٤٢، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبد التواب: ١٨٢.

في أمور عن الدراسة الوصفية»[١].

ويوضّح السعران بما لا يقبل الشك والتأويل أنّ الدراسة الوصفية تكون سهلة ومفيدة في دراستها اللغة الآنية، وأنّ الهدف من هذا المنهج هو دراسة اللغة دراسة علمية، ويعني بالعلمية تلك التي نادى بها سوسير في محاضراته التي قال فيها: «إنّ موضوع علم اللغة الوحيد والصحيح هو اللغة معتبرة في ذاتها ومن أجل ذاتها»[٢].

أي ينبغي على دارس اللغة أن يدرسها دراسة موضوعية تستهدف الكشف عن حقيقتها، فليس للباحث فيها أن يغيّر من طبيعتها، أو أن يقتصر في بحث على جوانب من اللغة مستحسنًا إياها، وينحي جوانب أخرى استهجانًا لها أو استخفافًا بها، أو لغرض في نفسه، أو لأي سبب آخر من الأسباب[٣].

لقد جاء مؤلفه (علم اللغة العام) موسوعة شاملة لجميع الاتجاهات اللسانية الحديثة، من سوسير إلى ما قبل تشومسكي، وتسجيل أشهر الآراء في القضايا الرئيسة، من دون أن يلتزم «مذهبًا معينًا، في كل أصوله وفروعه، من مذاهب الدرس اللغوي المتعددة»[٤]، بل درج على التعريف بالاتجاه الوصفي الذي لا يمثل اتجاه أصحاب المدرسة البنيوية السوسيرية فحسب، وإنّما هو منهج جميع الاتجاهات والمدارس اللسانية المعاصرة.

ونرى ذلك بوضوح في تناوله الجانب الدلالي الذي فصّل فيه القول كثيرًا، وعرض فيه معظم النظريات الأوروبية والأمريكية اللسانية المتجانسة والمتعارضة أحيانًا في دراسة المعنى، كالمدرسة الاجتماعية السويسرية الفرنسية متمثلة بنظرية سوسير وثالوثه المتكامل (اللغة، والكلام، واللسان)، وثنائية الوصفية والتاريخية[٥]. والمدرسة الوصفية الأمريكية، متمثلة بنظرية بلومفيلد السلوكية[٦]، والمدرسة الاجتماعية الإنجليزية، متمثلة بفيرث ونظريته سياق الحال أو المقام[٧].

(١) اللغة والفرد والمجتمع: محمود السعران: ٣١.
(٢) علم اللغة، محمود السعران: ٤٩.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥١.
(٤) علم اللغة، محمود السعران ٧.
(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠٠.
(٦) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠٤.
(٧) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠٩.

ولعل اتجاهه الوصفي يبرز كثيرًا في جملة الوصايا التي أوصى بها الواصف النحوي والتي من أهمها[١]:

١. تحديد معاني الأشكال النحوية، على المستوى النحوي، وعلى المستوى المعجمي أو القاموسي.

٢. تجنب ادخال مقدمًا تصنيفات سابقة، وألا يعترف إلا بالأقسام اللغوية التي تعبر عنها اللغة موضوع البحث بطريقة شكلية.

٣. تحديد قائمة بعناصر الأقسام النحوية، وأن يقرر توزعها، ووظيفتها، ومعناها على المستوى النحوي في مصطلحات خاصة بالنظام النحوي الذي تتبعه اللغة، وفي علاقة ذلك بظروف الاستعمال في الواقع، وأن يبين الوسائل التي تتضح بها في أجلى صورة، وأن يقيم هذه الأقسام على أسس شكلية لا تصورية أو فلسفية.

٤. على الواصف أن يدخل في اعتباره البنية الشكلية والظروف الاجتماعية الكائنة عند نطق الكلام.

٥. على الواصف أن يشير إلى الفروق بين القواعد التي تسير عليه اللغة في الكلام العادي المألوف، وبين تلك التي تسير عليه اللغة المتخصصة، كلغة الدين، أو لغة السياسة أو لغة الاقتصاد، إلخ.

٦. على الواصف أن يتبع سلوك الكلام الأجنبي في اللغة التي يدرسها.

الخلاصة مما تقدم يمكن القول: إنّ محمود السعران يُعد من أوائل رواد الكتابة اللسانية العربية التمهيدية، التي حاول أصحابها نقل الفكر اللساني الغربي إلى القارئ العربي، بمنهج وصفي علمي مبسط حتى يتمكن القارئ من الاطلاع على الفكر اللغوي الجديد.

وشكّل كتابه (علم اللغة مقدمة للقارئ العربي) نقطة تحول جديدة في ميدان البحث اللساني العربي، إذ أظهر فيه الأصول العامة لجملة من النظريات اللسانية التي استقاها من استاذه فيرث في المدرسة اللندنية، والدعوة إلى دراسة اللغة على أساس «شكلي أو صوري. . . ينظر إلى الصورة اللفظية المختلفة التي تعرضها لغة من اللغات ثمّ يصنفها على أسس معينة، ثمّ يصف العلاقات الناشئة بين الكلمات في الجملة وصفًا موضوعيًا»[٢].

(١) ينظر المصدر نفسه: ٢٣٧ - ٣٤٠.

(٢) علم اللغة، محمود السعران: ٢٠٧.

٣. محاولة عبد الرحمن أيوب:

لقد جرت عادة الرواد عقد موازنة بين الدرس القديم والدرس الحديث في بيان أهم جوانب النقص في الدرس القديم، ودفع الباحث في الميدان اللغوي نحو الاتجاه الوصفي المعاصر؛ وعلى منوال صاحبيه (إبراهيم أنيس، ومحمود السعران) يشرع عبد الرحمن أيوب لجذب انتباه القارئ «إلى وجود مذهبين في الدراسة»(١):

أحدهما: المدرسة اللغوية التقليدية: وعني بها مدرسة النحاة العرب الأوائل، التي كان من مقتضياتها البدء من الجزء وتنتهي منه إلى الكل، كما يفعل البنّاء حين يضع حجرًا فوق حجر حتى ينتهي إلى بناء كامل، فصنيعها على هذا الأساس صنيع من يكوّن الشيء. وهم بهذا نهجوا منهجًا «يعتمد على النقل عن العرب وعلى تطبيق بعض الأحكام المنطقية»(٢).

وثانيهما: المدرسة اللغوية التحليلية الحديثة: وعني بها مدرسة بلومفيلد وهاريس التوزيعية الوصفية، التي اختارت أن تنظر إلى البناء الكامل وتتبينه حجرًا حجرًا، دون أن تُزيح أحدًا من الأحجار، فصنيعها صنيع من يصف تكوين الشيء دون أن يتدخل فيه بشيء، أي تصف التكوين اللغوي دون أن تفصل أجزاءه بعضها عن بعض.

وارتضى عبد الرحمن أيوب لنفسه المذهب الأخير ورفض المذهب الأوّل؛ لأنّه كما يرى أيوب «لا يمكن أن يوصف بأنّه تفكير علمي بالمعنى الحديث»(٣). وأحال القارئ للتعرف على مبادئ وأصول مذهبه الوصفي الشكلي، في كتاب هاريس (مناهج اللسانيات البنيوية) زعيم البنيوية الوصفية الأمريكية(٤).

وهذا يعني أنّ عبد الرحمن أيوب تبنى وصفية المدرسة الشكلية الأميركية، بل قمة الوصفية كما بلغت على يد رائدها بلومفيلد ومن ثمّ تلميذه هاريس والذي يمثل قمة الصرامة والشكلية في مذهبه التوزيعي في التحليل البنيوي للغة(٥).

(١) دراسات نقدية في النحو العربي، عبد الرحمن أيوب: ٢، ومحاضرات في اللغة، عبد الرحمن أيوب: ٧.
(٢) محاضرات في اللغة، عبد الرحمن أيوب: ٧.
(٣) دراسات نقدية في النحو العربي، عبد الرحمن أيوب: كلمة المؤلف: د.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٣.
(٥) ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي: ١٧١.

زعم عبد الرحمن أيوب أنّ النحاة العرب المتقدمين كانوا بعيدين عن الدراسة العلمية الموضوعية؛ لأنّهم أخضعوا الظواهر اللغوية لمعايير مستوحاة من طغيان المنطق الأرسطي، وتجاهلوا الخصائص المميزة لكل لغة، وفرضوا عليها ما ليس فيها من قواعد النحو اللاتيني(١). الأمر الذي أبعدهم من أصول التفكير العلمي الحديث الذي اتسم «بموضوعية البحث، واقتنع اللغويون بأن يكونوا واصفين للظواهر اللغوية لا مفلسفين لها»(٢).

إذًا الموضوعية والوصفية أساس الدراسة العلمية للغة عنده، وفي ذلك مسايرة لمنهج بلومفيلد الذي عهدنا عليه الصرامة العلمية، القائمة على الملاحظة والتجريد، والتقليل إلى حد كبير من أهمية الجانب المعنوي في الوصف النحوي، لذلك نجده في معظم تحليله اللغوي يعتمد «شكل الكلمة، لا معناها، اساسًا للتقسيم»(٣).

ما يلحظ من محاولة أو تجربة عبد الرحمن أيوب، أنّه اختلف عن جيل الرواد بالتزامه «رأي المدرسة التحليلية الشكلية في الدراسات اللغوية، الذي يحتم أن تدرس اللغة لا باعتبار دلالة الألفاظ بل باعتبار أشكالها»(٤)، وأفصح عن ذلك غير مرة، وبقي في موقف التحيّز والتحزّب لها، مع أنّها تتعارض مع مدرسة فيرث السياقية التي انطلقت من المعنى والأثر الاجتماعي في الدرس اللغوي، والتي كان أحد روادها وممن تتلمذوا لفيرث خاصة.

كان هدف عبد الرحمن أيوب دائمًا الوصول إلى نتيجة من خلال البحث هدفها تأكيد وجوب تجريد قواعد النحو العربي من العنصر الدلالي، والتعامل مع الأشكال اللغوية في التحليل تجنبًا للوقوع في شباك المعنى، ويبدو أنّ عبد الرحمن أيوب أدرك عدم اكتمال المنهج الوصفي الشكلي، وقصوره في تحقيق مبدأ الكفاية في دراسة التراكيب النحوية، وشعر بعجز هذا المنهج «إلى ابتكار بديل للقواعد العربية»(٥)؛ لأنّ المعنى روح اللغة وعنصر أساسي في الدرس اللغوي، وقدّ أقرّ بذلك تشومسكي نفسه عندما أعاد الاعتبار إلى الدلالة في النظرية التوليدية التحويلية، ويعترف عبد الرحمن أيوب صراحة في موطن آخر بأنّ عمله «هذا ليس سوى مقدمة لعمل آخر

(١) ينظر: دراسات نقدية في النحو العربي، عبد الرحمن أيوب: كلمة المؤلف: د، والعربية وعلم اللغة البنيوي: ١٧٠.
(٢) المصدر نفسه: كلمة المؤلف: ه.
(٣) دراسات نقدية في النحو العربي، عبد الرحمن أيوب: هامش: ١١.
(٤) المصدر نفسه: ٢١.
(٥) الشكل والمضمون في التركيب اللغوي: عبد الرحمن أيوب: ٤٢.

أرجو أن يتحقق يومًا ما»[١]، ولقد رحل الدكتور عنا إلى جوار ربه، ولم يتحقق رجاءه.

٤. تجربة تمام حسان:

لقد وجدت اللسانيات الوصفية طريقها إلى الثقافة العربية عامة والبحث اللغوي خاصة عن طريق كتابات جيل الرواد الأوائل، وكان تمام حسان من اللسانيين الذين قدموا في أعمالهم «إلى القارئ العربي ما اصطنعه الغربيون من منهج وصفي، وليعرض هذا المنهج عرضًا مفصَّلًا، آخذًا أمثلته ووسائل إيضاحه من الفصحى حينًا، ومن العاميات حينًا، ومن لغات أجنبية حينًا ثالثًا، فلم يكن بحثًا خالصًا للفصحى بقدر ما كان عرضًا للمنهج الوصفي»[٢].

كان تمام حسان وفيًا للمنهج الوصفي في معظم أعماله، فقد بنى جل أعماله وفق هذا المنهج، منها كتابه (اللغة بين المعيارية والوصفية) الذي قدّم فيه المنهج الوصفي إلى القارئ العربي، بصورة أكثر دقة وأكثر شمولًا[٣].

وعلى منوال السالفين فرّق تمام حسان بين نوعين من أنواع الدراسات اللغوية[٤]:

أحدهما الدراسة الوصفية الحديثة التي تدرس اللغة دراسة علمية قائمة على الملاحظة، والاستقراء، والوصف، أي أنّها تختار لغة من اللغات، في مرحلة معينة، وبيئة محددة وتصفها وصفًا استقرائيًا وتجعل النواحي المشتركة بين المفردات الداخلة في هذا الاستقراء قواعدًا، ولكن لا تعتبر هذه القواعد معاييرًا يجب أن تتبع، وإنّما هي جهة اشتراك بين حالات الاستعمال الفعلية.

ثانيهما: الدراسة المعيارية التقليدية التي تغلب فيها القاعدة على النص، وتجعل من القاعدة قانونًا معياريًا يجب احترامه واتباعه. ويرى أنّ هذا النوع ليس من الدراسات اللغوية الحديثة في شيء، وإنّما يمثل النحو التعليمي الذي يتعلمه الغلمان، ويذهب «إلى أنّ أساس الشكوى هو تغليب المعيارية في منهج حقه أن يعتمد على الوصف أولًا وأخيرًا»[٥].

(١) دراسات نقدية في النحو العربي، عبد الرحمن أيوب: كلمة المؤلف: د

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها: ٧.

(٣) ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي: ١٨١.

(٤) ينظر: اللغة بين المعيارية والوصفية: ٣٠ - ٣١.

(٥) اللغة بين المعيارية والوصفية: ١٢.

ويرى الدكتور أنّ النحويين لم يدركوا الفرق بين النشاط اللغوي المعياري، والنشاط اللغوي الوصفي، وغاب عنهم التمييز بين المتكلم والباحث[١]؛ فنظروا «إلى اللغة من زاوية المتكلم لا من زاوية الباحث»[٢]، فطغت المعيارية في بحوثهم وتراجعت الوصفية التي يعدها جوهر الدراسات اللغوية المعاصرة، والصبغة التي اصطبغ بها القرن العشرين[٣]، ومنهج الباحث لا المتكلم؛ لأنّ للغة في منظور الباحث ظواهر تلاحظ، وموضوع دراسة، ووسيلة كشف عن أعراف المجتمع. أمّا المتكلم فاللغة تمثل عنده معايير تراعى، وميدان حركة، ووسيلة حياة في المجتمع[٤].

لم يسلك تمام حسان مسلك وصفية عبد الرحمن أيوب الشكلية التي تحتكم إلى الشكل دون المعنى، وتبنى وصفية أعادت الاعتبار من جديد إلى جانب المعنى، وأخذ ينظر إلى اللغة بوصفها أكبر الحقائق الثقافية، بمعنى أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية كالعادات والتقاليد، وينبغي أن تدرس على نحو ما تدرس الظواهر الاجتماعية: بالملاحظة، والاستقراء، ثمّ التقعيد[٥]، باعتقاده أنّ «إغفال العنصر الاجتماعي في اللغة يحرم الدراسة من أقوى خصائص هذا الموضوع المدروس، ويجعل الوصف في هذا المنهج الوصفي يتناول وجهًا شكليًا من المسألة، ويهمل وجهها الآخر الذي يمثل جوهرها وروحها»[٦].

وهذا يعني أنّ الوصفية التي دعا تمام حسان إليها في أوّل مشواره اللساني، هي وصفية المدرسة الاجتماعية الفيرثية، وليس أدل على ذلك من تأثره العميق بنظرية فيرث السياقية (سياق الحال) والتي وسمها ب(الماجريات) في منهج الدلالة، التي سعى إلى تلخيصها لتحل محل النظرة التاريخية، وتكون الفكرة المركزية للدراسة الوصفية[٧] «وهي تدل - بأحد معانيها - على مجموع عناصر محيطة بموضوع التحليل، تشمل حتى التكوين الشخصي، والتاريخ الثقافي، للشخص؛ ويدخل في حسابها الماضي، والحاضر، والمستقبل، وهذا الاصطلاح - بالنسبة لعلم

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١١.
(٢) المصدر نفسه: ٢٦.
(٣) ينظر: مناهج البحث في اللغة، تمام حسان: ٢٨.
(٤) ينظر: اللغة بين المعيارية والوصفية: ١٢.
(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢٢.
(٦) المصدر نفسه: ٢٣.
(٧) ينظر: مناهج البحث في اللغة، تمام حسان: ٢٥٢.

اللغة - قصد به دائمًا سياق النص»[١].

فضلًا عن سفره الرائد في ميدان البحث اللساني المعاصر (اللغة العربية معناه ومبناها) الذي قدّم فيه خلاصة أفكاره اللسانية الوصفية، التي اعتبرها «أجرأ محاولة شاملة لإعادة ترتيب الأفكار اللغوية يجري بعد سيبويه وعبد القاهر»[٢]. متمثلة بنظريته اللغوية نظرية (تضافر القرائن) التي هزت أركان البحث اللغوي.

استمد تمام حسان أصول المنهج الوصفي عامة ونظريته اللغوية خاصة، من مدرسة لغوية ذات منحى اجتماعي هي مدرسة فيرث، كما اعتقد الدكتور محمد صلاح الدين الشريف[٣]، ويؤكد بأنّ «فيرث كتمام حسان يجعل المعنى غاية الدراسة اللغوية، وأنّ فيرث أوقف الدلالة على السياق الاجتماعي»[٤]. ونحن نعتقد أنّ تمام حسان طوّر نظرية فيرث وطبقها على مستويات اللغة كافة، بعدما حصرها فيرث في الصوت والدلالة، يقول تمام حسان: «إنّ كل دراسة لغوية لا بد أن تتجه إلى المعنى»[٥].

إنّ الذي ينعم النظر في أعمال تمام حسان يجدها موسوعة لسانية حوت مختلف الاتجاهات والمدارس اللسانية، وأفكار وآراء رواد الوصفية الأوروبية والوصفية الأمريكية، من أمثال: سوسير، وسابير، وبلومفيلد، وتروبتسكوي، ومالينوفسكي، وحتى تشومسكي في آخر أعماله.

إلّا أنّ حلمي خليل يعتقد بأنّ وصفية تمام حسان التي تبناها ويدعو إليها «تنطلق من مبادئ دي سوسير ومن النظرة الاجتماعية للغة كما هي عند فيرث»[٦]. وتتلخص وصفية تمام حسان بالآتي[٧]:

١. العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة رمزية، وهذه العلاقة بين الرموز ومعانيها تكون على أنواع ثلاثة: علاقة طبيعية، وعلاقة منطقية، وعلاقة عرفية[٨].

(١) المصدر نفسه: ٢٥٢.
(٢) اللغة العربية معناها ومبناها: ١٠.
(٣) ينظر: لنظام اللغوي بين الشكل والمعنى: الدكتور محمد صلاح الدين الشريف: ٢٠١.
(٤) المصدر نفسه: ٢٠١.
(٥) اللغة بين المعيارية والوصفية: ١١٧.
(٦) العربية وعلم اللغة البنيوي: ١٨٧.
(٧) ينظر: المصدر نفسه: ١٨٧ - ١٨٨.
(٨) ينظر: اللغة بين المعيارية والوصفية: ١١٠ - ١١١.

٢. المستوى الصوتي من اللغة حقيقة عضوية تخضع للوصف من حيث المخارج أو الحركات التي يقوم بها جهاز النطق، وهي مقدمة لدراسة علم التشكيل الصوتي (Phonology) الذي يعبر عن النظام الرمزي الذي تُنظم به هذه الأصوات[١].

٣. إنّ كل دراسة لغوية ينبغي أن تتجه الى المعنى، لأنّه في نظر الدراسات اللغوية الحديثة «صدًى من أصداء الاعتراف باللغة كظاهرة اجتماعية»[٢]. لذلك صار المعنى الهدف المركزي الذي تصوب إليه سهام الدراسة اللغوية من كل جانب[٣].

٤. الاستقراء والتصنيف والتقعيد أسس المنهج الوصفي في دراسة اللغة.

٥. اللغة منظمة كبرى مكونة من أنظمة متكاملة تعمل كلها في اتجاه واحد، وهذه الأنظمة تتمثل في: النظام الصوتي، والصرفي، والنحوي المعجمي[٤].

ويذهب حلمي خليل إلى أنّ الوصفية التي دعا إليها تمام حسان «هي وصفية تقريرية لا تفسر أو تعلل»[٥]، مستندًا في ذلك إلى قول الدكتور تمام حسان: إنَّ «كل منهج علمي من مناهج البحث في الوقت الحاضر أنّه يعني أولًا وأخيرًا بالإجابة عن (كيف) تتم هذه الظاهرة أو تلك، فإذا ما تعدى هذا النوع من الإجابة إلى محاولة الإجابة عن (لماذا) تتم هذه الظاهرة أو تلك لم يعد منهجًا علميًا بل لا مفر من وصفه بالحدس والتخمين»[٦].

ويتفق الباحث مع الدكتور حلمي خليل في ذلك، إلا أنّه لم يلتزم بها ويتحيز لها طوال مشواره العلمي، بل على الخلاف من ذلك، ففي أبحاثه الأخيرة ضمّ النموذج التوليدي التحويلي لتشومسكي[٧]، «الذي بدأ التحليل اللغوي من أساس عقلاني مجرد. . . وقال: إنّ المهم ليس الوصف والتصنيف فقط، وإنّما ينبغي أن يكون للتحليل إلى جانبهما طاقة تفسيرية»[٨]. محاولًا إعادة وصف اللغة العربية في ضوء هذه النظرية، واعترف صراحةً بأنّ نظرية تشومسكي هي

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١١٥.
(٢) اللغة العربية معناها ومبناها: ٢٨، واللغة بين المعيارية والوصفية: ١٤٩.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١١٧.
(٤) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ٣٧.
(٥) العربية وعلم اللغة البنيوي: ١٨٨.
(٦) اللغة بين المعيارية والوصفية: ٥٠، والعربية وعلم اللغة البنيوي: ١٨٨.
(٧) ينظر: اجتهادات لغوية، تمام حسان: ١١٠.
(٨) مقالات في اللغة والأدب، تمام حسان: ٢٦٨.

الأقرب والأمثل لهذا المشروع عندما عرض أهم مميزات هذه النظرية مطبقًا إياها على آيات من الذكر الحكيم، وبعض الجمل العربية[١].

ويصل تمام حسان إلى قناعة بأنّ اصلاح النحو يتم عبر الاتجاهات الآتية[٢]:

١. الاتجاه السياقي الرصفي ((Linear: ويقصد به نظرية الرصف السياقية لفيرث.

٢. الاتجاه البنيوي الذي أرسى دعائمه العالم السويسري سوسير في محاضراته المشهورة، وهو اتجاه عرفه النحوي العربي وبخاصة في الدراسة الصرفية، بحسب رأي تمام حسان.

٣. والاتجاه البنيوي الشكلي الذي أرسى دعائمه العالم الأميركي بلومفيلد والذي اكتفى من اللغة بتركيبها، وأهمل وظائفها.

٤. وأخيرًا الاتجاه التحويلي الذي أرسى دعائمه العالم الأميركي تشومسكي الذي تجاوز الوصف والتصنيف، إلى التفسير والتأويل، وهو اتجاه له بواكير في النحو العربي القديم.

وما تفرد به تمام حسان من بين الرواد؛ إشارته إلى أنّ النحاة العرب نهجوا منهج الوصفية التي يباهي بها المحدثون[٣]، وأنّه يرى أنّ كثيرًا من عناصر المنهج الوصفي وأصوله كانت متوافرة في عمل نحاة العربية وتفكيرهم خصوصًا في المراحل الأولى من وضع النحو العربي حتى سيبويه، «وأوضح ما يكون ذلك في نشاط النحاة الأولين الذين كان يغلب على ألسنتهم أن يقولوا: (العرب قولوا كذا)، بدلًا من قول الآخرين يجب ويجوز»[٤].

ويرى تمام حسان أنّ عمل أبي عمرو ابن العلاء كان عملًا وصفيًا خالصًا، عندما سئل عما يفعل بما خالفت فيه العرب قواعد النحاة، فقال: أعمل على الأكثر، وأسمي ما عدا ذلك لغات[٥].

٥. تجربة كمال بشر:

تنطلق وصفية كمال بشر من حقيقة مفادها أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية، وأنّ دراستها يجب أن تقوم على أسس لغوية علمية محضة، وأن يكون تسجيل الظواهر اللغوية وتحليلها بأسلوب لغوي

(١) ينظر: اجتهادات لغوية: ١٠٦ - ١٠٨.

(٢) ينظر: تعليم النحو بين النظرية والتطبيق، تمام حسان: ١١٢ - ١١٤.

(٣) ينظر: مقالات في اللغة والأدب، تمام حسان: ٢٧٠، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، حافظ إسماعيلي علوي: ١٤٩.

(٤) المصدر نفسه: ٢٧١.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢٧١.

صرف[١]؛ لأنّ «علم اللغة هو العلم الذي يدرس اللغة بطريقة علمية»[٢]، ويعني بالدراسة العلمية تلك الدراسة التي لها منهج أو مناهج محددة، ينبغي أن تتوفر فيها الخواص الآتية[٣]:

١. الوضوح: أن تكون الأفكار والنتائج المطروحة واضحة ويسيرة وخالية من التعقيد.

٢. النظامية: وتعني اختيار منهج محدد في دراسة المادة المدروسة من جمع وترتيب وتفسير وتحليل.

٣. الموضوعية: وتعني الوصول إلى نتائج عملية يدركها الجميع وقابلة للاختبار.

٤. إمكانية التطبيق: وتعني سلامة الوصول إلى أحكام عامة يمكن تطبيقها على مفردات أو جزيئات المادة الخاضعة للدرس.

وحقيقة الأمر أنّ هذه الخواص العامة تكاد تلتزم بها أغلب المدارس اللسانية في البحث اللغوي، غير أنّهم يختلفون في أسلوب المعالج اللغوية ومنهج البحث في اللغة، ومن «أهم وجوه الاختلاف عندهم اختلاف في تحديد حقل الدراسة وطبيعة المادة الخاضعة للبحث»[٤].

لذلك نجد كمال بشر ينكر وصفية سوسير القائمة على الثنائية المشهورة، فهو يرفض «رفضًا تامًا فكرة الثنائية في الكلام الإنساني»[٥]، لأنّه يعتقد أنّ اللغة المعنية والكلام الفعلي جانبان لشيء واحد، وليس هناك ما يبرر التفريق بينهما.

وعلى الرغم من أنّ بلومفيلد يتفق مع فيرث في جانب عدم التفريق بين جانبي اللغة ويرى أنّهما متكاملان، إلا أنّ كمال بشر رفض وصفية بلومفيلد؛ لكونها من وجهة نظره تتخذ المنهج السلوكي أساسًا في تفسير عدد من القضايا اللغوية الخطيرة، وأهملت التنوعات اللغوية الحادثة من الأفراد إهمالًا تامًا، ولم تربط الظواهر اللغوية بالظواهر الاجتماعية[٦].

(١) ينظر: دراسات في علم اللغة، كمال بشر: ١٧.
(٢) التفكير اللغوي بين القديم والجديد، كمال بشر: ٥٢.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥٣ - ٥٥.
(٤) المصدر نفسه: ٥٦.
(٥) دراسات في علم اللغة، كمال بشر: ١٧.
(٦) ينظر: دراسات في علم اللغة، كمال بشر: ١٦ - ١٧، وعلم اللغة الاجتماعي، كمال بشر: ٥٨، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، كمال بشر: ٥٦.

وكذلك رفض وصفية تشومسكي التوليدية التحويلية؛ لكونها «نظرية عقلية صرفة، وتهمل الجانب الاجتماعي للغة»(١)، فضلًا عن أنّ ثنائية تشومسكي (الطاقة والأداء) شأنها شأن ثنائية سوسير (اللغة المعنية والكلام)، لا تترك مجالًا من أي نوع للنظرة الاجتماعية إلى اللغة(٢).

ويزعم كمال بشر أنّ منهج علماء اللغة العربية في التقعيد اللغوي كان مشحونًا بالأفكار الفلسفية والمنطقية، لأنّ تركيزهم الأول والأخير هو وضع معايير وضوابط ثابتة يجب اتباعها، وقد أدت بهم هذه المعيارية إلى الخلط في المناهج، لذلك فهو يرى أنّ «التقعيد اللغوي العربي وبخاصة النحو والصرف ليس له نصيب ملحوظ يسوغ نعت نظريتهم بالوصفية»(٣).

وبناء على ذلك ارتضى كمال بشر لنفسه وصفية فيرث؛ لأنّه يراها أشد وأوضح وصفية يمكن أن «نرى الارتباط بين ثقافة الدارس وبيئته وبين منهجه في دراسة اللغة»(٤)، ويذهب إلى أنّ فيرث خط لنفسه خطًا ينماز به من غيره من اللغويين، بمنهجه الذي نظر في اللغة في جوّها الاجتماعي وتحليلها تحليلًا عمليًا واقعيًا بطريق الوصف(٥).

تقوم وصفية فيرث على مبدئ أن اللغة وحدها تستطيع أن ترشدنا إلى الطريق القويم في دراستها، وذلك بالاعتماد التام على حقائقها، كما تبدو في الصورة التي عليها دون اللجوء إلى وسائل ومبادئ ثانوية، ومن هنا كانت الملاحظة المباشرة هي أساس العمل الذي يبدأ بوصف الظواهر اللغوية ومحاولة تقعيدها وفقاً لخصائصها، ووظائف تركيبها(٦).

ومما تتقدم نخلص إلى أنّ كمال بشر تفرّد عن سواه من الرواد أنّه عرّج على المدارس اللسانية اللغوية كافة، الأوروبية والأميركية، وكان يعرض المسألة الواحدة بمنهجين متقابلين وبأسلوبين مختلفين، ليبين مواطن الضعف والخلل في مناهج الدرس اللغوي، وليدفع الباحث إلى المنهج أو الاتجاه الذي التزمه في جملة ما عرض وما موضع من أعمال، وهو اتجاه الوصفية السياقية التي ظل وفيًا لها منذ عام (١٩٤٩م) إلى آخر طريقه العلمي.

(١) علم اللغة الاجتماعي، كمال بشر: ٥٩.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٥٩، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، كمال بشر: ٥٤.
(٣) المصدر نفسه: ٧٢.
(٤) التفكير اللغوي بين القديم والجديد، كمال بشر: ٨٤.
(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٨٤.
(٦) ينظر: دراسات في علم اللغة، كمال بشر: ١٧٢، وعلم اللغة الحديث، محمد حسين عبد العزيز: ٣٢٧.

ويحدد كمال بشر الغاية بكل وضوح بقوله: «حتى نرشد شباب الدارسين وبعض شيوخهم إلى كيفية تناول القديم في ضوء الحديث. ونكون بذلك قد ظفرنا بالحسنيين: رعاية القديم والحفاظ عليه وصقله أو تهذيبه، أو الحوار معه بفكر جديد، حتى يظهر في صورة أبهى وأجلى وأقرب منالًا للجادين من الباحثين»[1].

(١) المصدر نفسه: ٥.

الخاتمة

ومما سبق، يتمخض البحث عن أهم النتائج التي تؤكد أنّ:

١. الدرس اللغوي الحديث أحدث تحولاً جذريًا في علم اللغة، إذ نقل الدراسات من التركيز على التاريخ والمقارنة إلى دراسة اللغة كنظام متكامل قائم بذاته، مع إعطاء الأولوية للبنية الداخلية للغة على حساب تطورها التاريخي.

٢. يعترف سوسير بأهمية الدراسة التاريخية للغة، لكنه يمنح الأولوية للدراسة الآنية التي ترى اللغة نسقًا متكاملًا، مؤكدًا ضرورة الفصل بين المنهجين كي لا تؤثر النظرة التاريخية سلبًا في الوصف الآني.

٣. يُعدُّ إبراهيم أنيس من أوائل من نقلوا الفكر البنيوي إلى الدرس اللغوي العربي، وركز على أهمية دراسة اللغة من منظور بنيوي معاصر، بعيدًا عن المنهج التقليدي المعياري.

٤. أبرز محمود السعران أهمية المنهج الوصفي البنيوي في دراسة اللغة، واعتبر بانيني من أوائل النحاة الوصفيين، كما اهتم بتوضيح الفروق بين الدراسات اللغوية القديمة والحديثة.

٥. أكدَّ كمال بشر ضرورة الإفادة من المنهج البنيوي في تحليل اللغة العربية، واعتبره مدخلًا علميًا لفهم الظواهر اللغوية بعيدًا عن التأثيرات الفلسفية والمنطقية.

٦. عدَّ تمام حسان سوسير بطل البنيوية في العصر الحديث، وركز على أهمية التحليل البنيوي في دراسة اللغة العربية، كما دعا إلى تجاوز النحو التقليدي لصالح المنهج البنيوي الوصفي.

٧. أسهم عبد الرحمن أيوب في توضيح أثر البنيوية السوسيرية على الدراسات اللغوية العربية، وناقش كيفية تطبيق المبادئ البنيوية في تحليل اللغة العربية.

٨. أسهم هؤلاء الرواد أسهموا في نقل البنيوية السوسيرية إلى الدرس اللغوي العربي، وقدموا قراءات نقدية وتطبيقية للمنهج البنيوي في دراسة اللغة العربية، مما أحدث نقلة نوعية في تحليل الظواهر اللغوية بعيدًا عن المناهج التقليدية.

المصادر والمراجع

١. اجتهادات لغوية، مؤلفات الأستاذ الدكتور تمام حسان، عالم الكتب، ط١ القاهرة، ٢٠٠٧م.

٢. الأصوات اللغوية، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ٢٠١٧م.

٣. تعليم النحو بين النظرية والتطبيق: تمام حسان، مجلة المناهل يصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط – المغرب، العدد السابع، السنة الثانية، ١٩٧٦م.

٤. التفكير اللغوي بين القديم والجديد، دكتور كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٥. تمام حسان رائدًا لغويًا بحوث ودراسات مهداة من تلامذته وأصدائه، إعداد وإشراف الدكتور عبد الرحمن حسن العارف، عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة، ط١، ٢٠٠٢م.

٦. دراسات في علم اللغة القسم الأول، دكتور كمال محمد بشر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.

٧. دراسات نقدية في النحو العربي، الدكتور عبد الرحمن أيوب، مؤسسة الصباح، الكويت.

٨. دلالة الألفاظ، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، مصر، ١٩٧٦م.

٩. سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: ٣٩٢هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٠. شرح المفصل للزمخشري، يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (ت: ٦٤٣هـ)، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.

١١. الشكل والمضمون في التعبير اللغوي، مقال بمجلة الاقلام، بغداد، كانون الثاني (١٩٩٩م).

١٢. العربية وعلم اللغة البنيوي دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، مصر ١٩٩٥م.

١٣. علم اللغة الاجتماعي مدخل، دكتور كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
١٤. علم اللغة الحديث، محمد حسن عبد العزيز، مكتبة الآداب، ط١، القاهرة، ٢٠١١.
١٥. علم اللغة العام مقدمة للقارئ العربي، الدكتور محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
١٦. علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة: الدكتور يوئيل يوسف عزيز، دار أفاق عربية، ط٣، بغداد.
١٧. علم اللغة العربية، الدكتور محمود فهمي حجازي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط١.
١٨. علم اللغة بين التراث والمعاصرة، الدكتور عاطف مدكور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م.
١٩. علم اللغة، الدكتور علي عبد الواحد وافي، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٩، ٢٠٠٤م.
٢٠. في اللهجات العربية، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٢١. اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، الدكتور مصطفى غلفان، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م.
٢٢. اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة حفريات النشأة والتكوين، الدكتور مصطفى غلفان، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م.
٢٣. اللغة العربية معناها ومبناها، مؤلفات الدكتور تمام حسان، عالم الكتب، ط٦، القاهرة، ٢٠٠٩م.
٢٤. اللغة بين المعيارية والوصفية، مؤلفات الأستاذ الدكتور تمام حسان، عالم الكتب، ط٤، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٢٥. اللغة والمجتمع رأي ومنهج، الدكتور محمود السعران، ط٢، الإسكندرية، ١٩٦٣م.
٢٦. محاضرات في اللغة، القسم الأول، منهج في دراسة اللغة من الناحية الاجتماعية والنفسية ودراسة أصواتها ومفرداتها وقواعدها، الدكتور عبد الرحمن أيوب، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٦م.

٢٧. المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط٣، القاهرة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٢٨. مقالات في اللغة والأدب الجزء الثاني، مؤلفات الأستاذ الدكتور تمام حسان، عالم الكتب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٦م.
٢٩. من أسرار اللغة، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، القاهرة، ١٩٦٦م.
٣٠. مناهج البحث في اللغة، الدكتور تمام حسان، دار الثقافة، مكتب النسر للطباعة، مصر، ١٩٨٩.
٣١. النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت: ٨٣٣ هـ)، المحقق: علي محمد الضباع (ت: ١٣٨٠ هـ)، المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية.
٣٢. النظام اللغوي بين الشكل والمعنى من خلال كتاب تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها محمد صلاح الدين الشريف حوليات الجامعة التونسية، العدد ١٧، ١٩٧٩م.